فى الأدب الشرقى

من الأدب التركى الحديث :

عبد الحق حامد

للدكتور عبد الوهاب عزام

شاعر الترك الاكبر ، حمل لواء الشعر أكثر من خمسين عاما غير منازع ، ولا يزال على المرض والشيخوخة مطمح الأبصار ، وقبلة الأفكار .

ولد سنة ١٢٦٧هـ فهو الآن فى الخامسة والثمانين من عمره المبارك ، وما فتىء منذ بلغ العقد الثالث فياضا بالشعر والنثر يسلك فيهما المسالك المختلفة موفيا على الغاية ، بالغا من الجمال والجلال النهاية ، حتى كتب أكثر من ثلاثين كتابا ، ثروة يفخر بها الأدب التركى بل يتحلى بها الادب الانسانى .

وليس يتسع المقام هنا للابانة عن شعره ونثره ، أو الافاضة فى وصفه والكشف عن نواحى النبوغ والاعجاز فى طبعه ، ولكنى أعرض لكتاب واحد من كتبه :

فى سنة ١٣٠٢ كان الشاعر فى الهند فمرضت زوجه ، فسافر بها راجعا الى دياره فماتت فى الطريق ودفنها فى بيروت . وكانت فى سن الخامسة والعشرين ، وشاعرنا يومئذ ابن خمس وثلاثين .

كانت وفاة فاطمة قيامة فى نفس عبد الحق وفى الادب التركى . كتب فى البكاء عليها زهاء الف وخمسمائة بيت فى كتابين أكبرهما وأولهما سماه « مقبر » ، وهو صرخة ما تزال مدوّية فى الأدب التركى منذ خمسين عاما . ولن يمحى صداها فى الحياة مابقى فى الانسان قلب ومابقى للشعر التركى قارىء ، والثانى سماه « أولو » أى الميت .

يقول جناب شهاب الدين وهو من أعاظم أدباء العصر :

ان « المقبر » ومقدمته فتحا عصراً جديداً فى أدبنا المنظوم والمنثور . ولم تؤثر وفاة فاطمة فى حياة الشاعر وحده بل فى آداب الامة كلها . . . ولا ريب أنه قد ولد من القبر الذى فى بيروت شاعر جديد أعظم من شاعرنا الاول . ان « المقبر » أعظم وأجل تمثال فى آدابنا ، ولست ارتاب فى أن هذه البديعة التى كتبت على حافة البقاء قد قدر لها الخلود . »

« المقبر » ثورة هائلة بعث فيها الشاعر أناته وعبراته وصيحاته وكل مافى قلبه وعقله . ينظر الى القبر باكيا فيطير به الفكر فى أرجاء العالم ، ويصعد به الى الله ثم يطوى فكره شيئا فشيئا ويهبط به الى القبر ليطير عنه الى السموات كرة أخرى . وهو فى ثورته واستسلامه يذكر القارىء بقصيدة فكتور هوجو (A. Villequier) التى رثى بها ابنته

ثارت ثائرة بعض النقاد على حامد « ومقبره » حينما نشره اذ رأوا فيه لغة غير مألوفة ، وثورة غير مفهومة ، فكان فى جلال الحزن وشدة الالم أسمى من أن يبالى المدح والذم . وما كتب الشاعر كتابه ليكون بديعة أدبية . بل أراد ، كما يقول : أن يبنى بالشعر قبر الحبيبة ، لايكترث بالناس حين يبنيه ؛ ولا يبالى بما يقولون فيه .

وقبل أن أعرض على القارىء نموذجا من « المقبر » أترجم مقدمته المنثورة التى يراها بعض الادباء عهداً جديداً فى النثر ، كما يعدون الكتاب عصراً جديداً فى الشعر . قال :

« المقبر » : — وهو آخر ما كتبت — كتب لتخليد وجود أصابه الفناء . وأنا أعلم أنه ليس فى « المقبر » أثر من المعانى الشعرية التى تنطوى عليها المقابر . وانما « المقبر » صيحة حسرة منبعثة من العدم ، فلن يظفر قارئه بشىء ، ولكنه عندى شىء ، أجل أن الفكر حين يجوس خلال الكتاب ليطوّف فى مقبره ثم يخرج منه كما يخرج من المقابر ؛ لايفقه شيئا . . .

قراءة فاتحة هذا الكتاب كاستيعابه كله ، والاحاطة بما فيه كالتفكير فى اسمه . لقد كتب هذا الكتاب فى مقبرة ، فهو وحى من الالم لمن يعرفون الكاتب السىء الحظ ، ووحى من الكلال لمن لايعرفونه .

من يسألنى : لماذا تنشر على الناس آلامك فى هذه الصورة وكان يسعك أن تكتمها فى قلبك ، أو تكتبها ولا تنشرها ؟ فذلك جوابى له :

لايبقى من هذه الاجساد المتهافتة فى وادى الصمت الاأحفان من التراب ، وكذلك لايبقى فى القلب من أحب الذكريات إلا خيال دارس ، ولست أقنع بهذا الخيال .

وأما نظم الكتاب وحفظه بين أوراق فمصيره أن يبلى كما تبلى الاعضاء الميتة والافكار اليائسة ولست أرضى بهذا البلى .

هل يضمن نشر الكتاب خلودها كما رجوت ؟ لا — ولكن مهما يكن من شىء فا « المقبر » أطول منى عمراً . ومن أجل ذلك نشرته ، انه قبر مبنى من الصيحات التى فى قلبى ؛ أود أن تكون كلماته كالكلمات التى نقشت على الاحجار . هيهات ...!

كل صيحة فى هذا « المقبر » قبر منفصل ولكن فيها كلها دفينا واحدا ، هو الانسانية التى تجلت لى فى الوجه الذى أحببته .

كتبت هـــذا الكتاب لأقرأه وحدى ، فقليل من يشاركنى احساسى . بل لاأود أن يشاركنى أحد فى هذا الاحساس خشية أن لا تكون هذه المشاركة الا بالتجريب . أريد أن أبكى وحدى على المسكينة التى بكيتها ، وهذه الوحدة عندى سلوان لانها أكبر العذاب .

ألا يرى القارىء أن هذه المقدمة كذلك تشبه كتابا كتب لى وحدى . وبعد . فليست العبارات المكررة فى « المقبر » الا كلمة واحدة ، وليست هذه الكلمة الا قبرا ؛ كما تنتهى الاصوات كلها الى النفس الاخير .

لا ارتاب ان « المقبر » كآثارى الأخرى سيفنى ، بل اعرف ان الابدية كلها لاتفى بحفظ آلامى على حالها ، وسيصعد الكاتب الى حضرة الخالق ودماء هذا الجرح سيالة من قلبه

من القلوب مالا يجتمع فيه السرور والآلام ، ومن القلوب مالا يزول حزنه بمايصيب فى الدنيا من سعادة و جدّ ، ولكن هذا الحزن لايحول دون السرور ، وفى بعض القلوب يخيم السرور والحزن معا ، ومن أجل ذلك تلوح السلوة فى الحزن أحيانا ، و يبين الالم فى الابتسام .

ومن القلوب مايزيد الفرح أحزانها . ومن هذه الآلام آلامى .

أود أن أطرب ليزيد حزنى ، ولست بمستطيع أن أفهم الناس ذلك ، فلغة هذا الاحساس تكبر على الأفهام . فلأصمت !

إن القارىء الذى يريد أن يعد « المقبر » شعراً لأنه من آثارى لن يجد فيه من شاعريتى أثراً ، ولكنه اذا فكر يسمع صرخات يستطيع أن يحسبها شعراً ، وما هذه الصرخات الا عجز البشر .

أعظم الشعر وأجمله وأصدقه أن يعيا الانسان بالبيان فيصمت حين تنوء به أحدى الحقائق الهائلة . ولكن المقبر يخطب ولايصمت .

يعجز الانسان أحيانا أن يعرف خيالا لاخطر له لما يبهره من جماله ، ويقصر أحيانا عن أدراك الفكر الطائر عن عقله لما يفوته من علائه . ويعيا أحيانا بفهم الاحساس المولود من قلبه لما يهوله من عمقه . وفى هذا العجز يرسل صيحاته ، أو يشدو بمالا يفهم من كلماته ، أو يصمت فلا يترجم عن حسراته ، فيأخذ قلبه فيطؤه بقدمه فيحطمه . وهذا كله شعر .

« المقبر » يتضمن أحساسا ولده قلبى . ولكنه فى بعض نواحيه غريب كل الغرابة عما يروى من شاعريتى . يجد القارىء فيه لغتين لاتشبه أحداهما الأخرى ، حتى يحسب أن قد تعاقب على « المقبر » كاتبان . بل يبعد بعضه منى حتى أعيا أنا بفهمه .

فأما حديثى فيه عن الماضى — وهو اكثر مواضعه خرابا على أنه أحبها الى — فيبكى من يعدونى شاعرا ، ويزيد صدق من لايعدونى من الشعراء . وبعض مواضعه ليس من شعرى ، بل هو أشبه بقبر فتاة فى ميعة الصبا .

أول هذين من النقائص الأدبية ، والثانى من النقائص الأنسانية .

ومايرجع الى تصوير الفضائل ناقص أى نقصان

وبعض نواحيه لايستطيع أن يمكث فى الأرض لأنه صيحات .

« المقبر » فى جملته ، يراه كثير من الناس أثرا باردا ، ولكنها البرودة التى تحرق قلبى .

لابد لعالم الأدب من آخرة ، والمقبر من هذه الآخرة علامة ، « المقبر » قبر حياتنا الأدبية ، والمقبر زوالى (١)

« المقبر » يبين عن فكر واحد بأساليب شتى ، الفاظه عند الخاصة لاشىء ، ومعانيه عند الخاصة والعامة لاشىء ، ولكن هيكله قبر ميت عزيز فهو عندى شىء .

« المقبر » خفيف فى جانب ثقل المصيبة التى أصابتنى ، فارغ فى جانب عمقها ، عدم فى جانب شعرها ، ولكنه بالقياس الىّ شىء .

ينبغى أن يكون « المقبر » ضريحا لا قبرا ، معبدا لاضريحا ، كوكبا لا معبدا ، فضاء لاينتهى لا كوكبا . ولكنه وأسفا ، لم يبلغ أن يكون قبرا .

« المقبر » ينبغى ان يكون منبرا ينزل اليه نور الاهى ، ولايستطيع أن يصعد اليه الفكر الانسانى ، يجب ان يكون « المقبر » محشرا . هيهات . !

لاأقول يجب الا أظهر فكرى ، بل ، يجب أن يكون مما لايمكن ظهوره . « المقبر » يئن أبدا . وان دل هذا الأنين الأبدى على العمق فواحسرتا أنه لايعدو أن يكون قبرا . ان معنى هـذا « المقبر » ظواهر المقابر .

ذكرت النقائص الأدبية والنقائص الانسانية . نعم ، ماذا عسى

(١) يريد الشاعر أن الكتاب بغموضه وركاكته قضى على الشعر التركى .

أن أفعل ؟ ماذا أفعل لتصحيح الخطأ وا كبر الخطأ صادر من المصحح .

ان الأبيات يجب أن تصنع للوقائع الجليلة ، والافكار الجميلة ، . كما تبنى الهياكل للأسماء الكبيرة ، وباسماء الوجوه الجميلة . والقبر هيكل بناه الله فكيف نستطيع نحن أن نصور ونجسم ؟

أى شاعر جسّد امرأة جميلة فصورها للذين لم يروها ؟ أى قلم حكى المحاسن الطبيعية على وجهها ؟ ان الذى يلهمنا احسن ما نشعر ونكتب هو الطبيعة وهذا الشعر يشبه الصورة التى تتراءى فى الماء لا بد لها من مصدر خارجه.

بعض أكابر الأدباء يدعون أن مزايا الشاعر تتولد من نفسه وليس هذا رأيى . ان محاسن « ان كانت » هى للجبال والمروج والوجوه الجميلة والأزهار . وأما سيئاتى فهى لى . أقول قبل أن أختم :

ان المصيبة التى أخبرنى بها « المقبر » قلبت شعرى كما قلبت كل شىء فى . فهل صعدت صدمة هذا الانقلاب بفكرى أو هبطت به ؟ يعرف ذلك أخوانى .

انظروا كيف عجزت عن كتابة كلمات حتى فى المقدمة ؟

الانقلاب الذى ذكرت هو قيامى فى نقطة أو فى فضاء غير محدود حيث تصطدم السماء والقبر . بقى قلبى طويلا بين هاتين القوتين الهائلتين ، كلما اقتربتا شعرت بالعزاء وكلما ابتعدتا غمرنى اليأس .

ثم أتحدتا فتحطمت فظهر « المقبر » . فهل هذا شعر ؟ محال . كان يجب أن يتحد القبر والسماء أو بعبارة أصدق أن يبقيا مفترقين ، وكان يجب أن أنوح فى الافتراق والاستغراق فيكون هذا شعرا

أنا لا أستحسن معظم ما كتبت قبل « المقبر » وبعضه يعجبنى قليلا ، وأما المقبر فلا يعجبنى قط ، ولكنى أحبه كل الحب . لا يعجبنى لأن صلة هذا الكتاب بالأدب واهية ، وأحبه لأنه « هى »

لعل « المقبر » يشبه الشعر عند من يرون الخليقة كلها شعرا ، وهو عندى يذكرنى بشاعرة ـ شاعرة كانت شعر القدرة الصانعة كل ما فى « المقبر » على نقصه وحشوه . روحانية متوفاة ، ومعنوية روح « المقبر » حالها وصورتها وخيالها وهيكلها وقبرها وحياتها التى ذهب الدهر بمحاسنها . ثم أكرر فأقول : « المقبر » « هى » ومن أجل ذلك أحببته .

ولكن « المقبر » فى نظر الأدب طفل دميم : ظاهر ، ولكنه ليس جميلا ، وفيلسوف حقير : حكمة ولكنها ذات ريب ، وحسن معيب : صيحة ولكن ذات صناعة ، وقبر مشيد : ليس حزينا ولكنه قبر : مغرب ، ولكنه متلالىء ، جمال ولكن بغير حب ، شعر ولكنه ذو قافية ، لأجل هذا لا أحبه

الفكر نهايته الموت ، والشعر نهايته الألفاظ والقوافى ، فماذا أصنع ؟ ان لم يكن « للمقبر » بد من فكر شرعى فهذا الكتاب قبر متوفاة ، أسأل زائريه الفاتحة .

وفى العدد الآتى نعرض على القارىء مثالا من شعر « المقبر » ان شاء الله ؟

« بقية المنشور على صفحة ٢٧ »

ويمينا بضة ناعمة خلقت للجد لا للعب
طبع النقس عليها شامة كالتى فى خدها الملتهب
أن فى قرطاسها مرقمها كأنين العاشق المكتئب
وحنا بين يديها رأسه كانحناء الساجد المقترب
غادة مرآتها أن نظرت صفحة من صفحات الكتب
يا ألهة الشعر باركها أذا سبحت فى موجه المصطخب
احفظ الهيفاء من تياره ليس بحر الشعر سهل المركب
يا فتاة الخدر عوذتك من سهر الليل ونجوى الشهب
وشرود الفكر فى جنح الدجى وهروب اللفظ عند الطلب
أتركى جفنك ينفث سحره فى خيالى وقفى عن كثب
لا تقولى الشعر بل أوحى به أنت خصب للخيال المجدب
أنما الشعر محيط فاسلمى ودعى أمواجه تقذف بى
أنه عبء على حامله مالهذا العبء ألامنكبى

محمود غنيم

ياليتنى !

عينىّ هل من صوب دمع مسعد؟ نفدت دموعى والأسى لم ينفد
روح فقدت حنانها البر الذى لا يُستظل بمثله إن يفقد
مازلت فى حزن عليها مرمض وتحير فى إثرها وتلدد
جاءت وراحت أشهر لم تنصرف عن ودها روحى وقد صفرت يدى
وتجىء أعوام وتذهب أشهر
لا يرتوى من وجهها الطرف الصدى
ياليتنى قد كنت حاضر يومها وسعدت قبل رحيلها بتزود
وشهدت أنتها بلـيّن مهدها ورأيت سكتتها بحافى المرقد
لما نضت أوصاب داء مسقم من بعد طول تصبر وتجلد
ورمت قيود معيشة ماعاشها فى الناس غير مثقّل ومقيد
لولا حذارى أن يفجعها الأسى ويؤودها صرف الحمام المعتدى
ويزيدها شجنا على أشجانها
لوددت لو عاشت وكنت أنا الردى
ونعمت فى لحدى بها طل دمعها ينهلّ لى وبشوقها المتجدد
وحنانها الصافى يظل مزاوراً قبرى يروح مع الزمان ويغتدى
وأقر جسمى فى التراب موسداً ذاك الفؤاد يعودنى فى العوّد
قد كان ذلك راحتى لا ما أرى من حيرة تضنى وعيش مكمد

فخرى ابو السعود